

www.ikhwanweb.com

IKHWANWEB TARJAMAT

IkhwanScope.com

مصر: علي شفا ثورة؟!

جامي جلازوف

مجلة فرونت بيج، الأربعاء 30 أبريل 2008

ضيف مناظرة فرونت بيج اليوم الصحفي والمؤلف البريطاني جون برادلي. فكتابه السابق هو "المملكة العربية السعودية في العراق: مملكة في أزمة" (2005). وهو معنا اليوم لمناقشة كتابه الجديد: من مصر: أرض الفراغنة علي شفا ثورة. وموقعه علي الإنترنت www.johnrbradley.com.

فرونت بيج: جون برادلي، مرحباً بك في مناظرة الفرونت بيج

برادلي: مرحباً جامي. من اللطيف أن أحادثك مجدداً.

فرونت بيج: ما الذي دفعك لتأليف هذا الكتاب؟

برادلي: أنا مقيم في مصر بصورة شبه دائمة منذ عقد مضى، مع عدم الأخذ في الحسبان السنة والنصف التي قضيتها في السعودية وبضعة أشهر قبيل أحداث 11 سبتمبر 2001. وعليه فأنا أتكلم اللغة العربية بلكنتها المصرية بطلاقة وأرى في مصر بلداً لي. لذا، فبعدها غادرت السعودية وألفت كتابي عنها "السعودية في العراق"، شققت طريقي بعدها عائداً إلى مصر.

وقد إقترحت علي ناشري تأليف كتاب عن الأوضاع السياسية والاجتماعية الحالية في مصر حيث أنه لا يوجد كتاب مشابه عن هذا الموضوع كما أن مصر هي البلد العربي التي أعرفها كثيراً بعيداً عن المملكة العربية السعودية.

وعلاوة علي هذا، فمصر هي أكثر البلدان العربية من حيث عدد السكان والقُدوة التاريخية لبلدان المنطقة كما أنها الحليف الأمريكي الكبير. لذا، فإنه من المهم جداً بالنسبة للغربيين تفهم الديناميكيات الداخلية لهذه البلد بصورة جيدة، خصوصاً وأن البلد مقدمة علي فترة من عدم الإستقرار الحاد.

في عام 2005، ساورني شعور قوي مبني علي ما سمعت وما رأيت علي الأرض وكذلك قراءاتي للتاريخ المصري الحديث أن هذه البلد مقبلة علي حركة محورية في تاريخها. وعلي الرغم من مجازفتي بالعنوان، فإنني قررت أن يكون "من مصر: أرض الفراعنة علي شفا ثورة." وعلي الرغم من ذلك، فإنني شعرت أي محق في الوثوق بغريزتي. فكتاب "من مصر" تم نشره هذا الشهر الذي تشهد فيه مصر أشد القلاقل حدة منذ ثورة 1952.

فرونت بيح: نعم، بالفعل جاء كتابك في الوقت المناسب. فمصر تشهد موجة متصلة من الإضرابات والمظاهرات وأحداث الشغب. في رأيك، ما هو السبب؟ وكيف تقيم أرجحية أن يؤدي هذا لتقلبات خطيرة؟

برادلي: هناك أسباب كثيرة: الفقر المتقع، والتعذيب، والفساد المستشري، والطغيان السياسي، والعمل علي تقليص الطبقة الوسطى، ونهب ثورات البلد لصالح القبط الثمينة بحجة الخصخصة وفتح الباب علي مصراعيه من أجل جذب الإستثمارات الأجنبية. إلي جانب هذا، يوجد نظام مفلس في أيديولوجياته لا توجد لديه رغبة في حل هذه المشاكل وهو بالفعل أصل كل هذه المشاكل.

توجد مؤشرات توحى بأن الموجة الأخيرة من الإضرابات وأحداث الشغب قد تطيح بنظام مبارك. فهناك 1.4 مليون مجند في قوات الأمن المصري تتمتع ببربرية أسطورية في إحراض المعارضة. وكما ذكرت في كتابي، فإن

هؤلاء البلطجية ربما يضربون أو يغتصبون أو حتى يقتلون الأطفال الصغار لما يدعونه من سرقتهم لعبوات الشاي فقط من أجل العبث بهم فقط. لذا، فإنهم يمكن الإعتماد عليهم في ضرب المتظاهرين في الشوارع حتى تفريقهم.

أرى أنه بغض النظر عن المعارضة المنظمة، فإن ثمة حدث غير متوقع يمكن أن يقوم بدور الشرارة التي تضرم النار في مصر جمعاء في القريب العاجل. فثمة إنتفاضة يمكن أن تقع بمجرد إعلان جمال مبارك رئيساً للبلاد. إن معارضة توريث جمال مبارك خلفاً لوالده هي احد الأسباب التي وحدث قوى المعارضة المصرية: العلمانيين واليساريين والإسلاميين والمسيحيين والمسلمين، وكل جموع الشعب الغير ميسسة والمحتقنة من حكم هؤلاء البلهاء لهم.

من المؤكد أن الثمانية عشر شهراً المقبلة ستكون فيها مصر فوق صفيح ساخن، فالأمور تسوء من يوم لآخر وتسبق أي فرصة للتحسن. إن هناك مخاوف خطيرة من دخول البلد في حالة من الفوضى ومن ثم إنقلاب عسكري، خصوصاً إذا اغتصب الإخوان السلطة.

فرونت بيج: إلى أي مدى وصلت شعبية الإخوان المسلمين؟ وإلى أي مدى تثنى أهمية دخول الإدارة الأمريكية في حوار مع هذه الجماعة الإسلامية "لتعديل مسارها" أو ديمقرتها؟

برادلي: إن الإخوان المسلمين ليست مشهورة جداً في مصر. وللعلم، فإن أهم أهداف هذا الكتاب هو فضح أسطورة شعبية الجماعة التي تعول عليها كثيراً في الغرب. فالجماعة يقدر تعدادها بما يقارب 500.000 عضو من بين 78 مليون مصري؛ إلي جانب مليون أو ما يزيد من المتعاطفين مع أهداف الجماعة أو مؤيديها بسبب ما يرونه من صلاحية أي جماعة تحتل مكان هذا الطاغية الذي يحكمهم في الحاضر. وبمعنى آخر، فإن الإخوان لا يساندتهم إلا 2 بالمائة من تعداد الشعب المصري.

وهذا يوضح أسباب عدم إنتشار فهمهم الأصولي للإسلام بين عموم المصريين، لأن الإسلام الذي يعرفه المسلمون في مصر هو خليط من التقاليد السنية والشيعية والصوفية.

فعلي سبيل المثال، يوجد 6 مليون رجل في مصر علي الأقل، ثلثهم من الشباب، أعضاء في الجماعات الصوفية؛ إلي جانب ضعف هذا العدد من الرجال وملايين لا تعد من النساء والأطفال يشاركون في المهرجانات التي ينظمها الصوفية ويسمونها "موالد". فهذه الأرقام التي تدهش الغرباء دليل علي أن تغطية أحداث مصر في الإعلام الغربي قد فضّلت تحليل التطورات المتعلقة بالإخوان علي حساب التيارات الإسلامية الأكثر إعتدالاً وشيوعاً.

إن الإخوان يعتبرون الموالد ظاهرة غير إسلامية، وهذا يفسر الأعداد الضئيلة في صف الجماعة. فالأصوليين السنة يعتبرون أن التضرع للأولياء وحتى الإحتفال بمولد النبي محمد قرين الشرك. هذا، ومشايخ الإفتاء الجامدين في الأزهر يوافقونهم علي ذات الرأي.

أضف إلي هذا نسبة الـ 10 بالمئة تعداد مسيحيو مصر إلي جانب الجماعات العرقية الأخرى كالبدو والنوبيين الذين يعتبرون أن التيار الإسلامي لعنة كالعلمانيين والسنين المعتدلين وأهل الصعيد القبليين. لذا، فإنه من غير الصعب تفهم خيبة أمل الإخوان في الحصول علي دعم شعبي لن ينالوه أبداً. فغالبية المصريين يعيشون في رعب من إمكانية وصول الإسلاميين المتشددين السنة للسلطة.

لكل هذه الأسباب ولأسباب أخرى، أزدري خبراء السياسة الخارجية في واشنطنون الذين يدعون حوار مع الإخوان المسلمين وتأهيلهم بديلاً مبارك. تعتبر جماعة الإخوان بالفعل أكبر فصيل سياسي في مصر، ولكن من من المصريين يعتني بالسياسة؟ فمجموع من صوت لهم في الإنتخابات الماضية لا يتعدى 2 بالمئة من جموع الشعب. إن

الإخوان المسلمين يستخدموا من قبل مبارك ذاته كقوة معارضة سياسية لإثارة الرعب في واشنطنون من إستحواذ الإسلاميين علي الحكم لو أسقط نظامه. كما أن صناع القرار الغربيين الذين يضخمون من الإخوان عن غير قصد يقومون بهذا العمل الشائن من أجل مبارك ويلعبون في غير صالح الشعب المصري.

بفرض أن هؤلاء الغربيين الذين يروجون للإخوان من علمانيي مصر الذين يعملون أساتذة للسياسة أو الأدب في جامعة القاهرة مثلاً، فإنهم لن يكونوا علي ذات الوله من الترويج لهذا النوع من الفاشية الثقافية لأن عليهم بعد ذلك أن يحصدوا التبعات بمفردهم.

فرونت بيح: "من مصر" يرسم لوحة قائمة لأوضاع مصر حيث يتوطن التعذيب والفقر والفساد. فيألي أي مدى وصلت هذه الأوضاع؟

برادلي: كتاب "من مصر" يشير إلى أن كل مشاكل البلد يمكن إرجاعها للوراء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لإنقلاب 1952 الذي أطاح بالملكية المدعومة من قبل الإنجليز وأتى بحمال عبد الناصر والضباط الأحرار. فقبل الإنقلاب، كانت هناك ملكية دستورية وبرلمان ديمقراطي فعّال؛ وعلي إثره حظر عبد الناصر كل أحزاب المعارضة السياسية. وقبل ذلك الإنقلاب، كان هناك إعلام حر مسموع؛ وبعده أمم عبد الناصر كل الصحف وعين فيها أتباعه رؤساء للتحرير. فقبل الإنقلاب، كانت القاهرة مفتوحة علي العالم؛ وبعده طرد عبد الناصر الأجانب وحكمت كراهيته للأجانب البلاد بإمتياز. وبعدها، حكمت لعنة القومية العربية التي كانت أضغاث أحلام لم تلبث أن تبخرت عندما إصطدمت بالواقع ولم تجلب للشعب المصري غير الهزيمة والقنوط.

إن الإحتلال شر دائماً ولم أَدافع عن الحقبة الإستعمارية الإنجليزية في كتابي. لكن بعيداً عن هذا، أشرت إلى أن الضباط الأحرار ورثوا الثروة والفساد من النظام الملكي المعزول حيث قضت علي كل الخير وأحلت السوء بالأسوأ. في الحقيقة، عانت مصر الحديثة من تاريخ طويل من الإحتلال الأجنبي من قبل الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز. ففي كتابي "من مصر"، أكدت علي أن مصر محتلة من قبل الجيش منذ عام 1952 وحتى الآن. وقد خلقت السطوة العسكرية علي البلاد نظاماً ظالماً له هدف واحد: تأييد حكمهم وتزويد ثروتهم وإمتيازاتهم. وحتى يتم هذا، فإن المصريين لابد أن يساقوا نحو الخنوع عن طريق التعذيب المنظم وأشكال الإرهاب الأخرى.

فرونت بيج: ما هي إحتتمالات أن تصبح مصر الدمية القادمة للهبوط؟ وفي حال وصول الإسلاميين للسلطة، هل هذا يعني خسارة الشرق الأوسط بكامله؟

برادلي: لو قررت واشنطنون الإستماع إلى الأصوات المنادية بالحوار وأطاحت بمبارك ونجده واستبدلهم بالإخوان المسلمين، فإن هذا لن يعد "نصراً للإسلام" فحسب بل إنه سيكون جرس الموت الذي سيقرع وداعاً للأعراف الديمقراطية والتعددية المصرية الأصيلة، مما سيكون له آثار وخيمة علي المنطقة بشكل أوسع. فمصر هي العائق الوحيد الذي يمنع التيار الإسلامي من السيطرة علي المشهد السياسي في المنطقة بشكل كامل.

وبالفعل، فإن الحججة التي يكررها الإسلاميون بأن أجندتهم لا تتبني الديمقراطية فقط بل وتحقق بها أقصى درجات المشاركة الشعبية هي مجرد أكذوبة. فالديمقراطيات الغربية تضمن المشاركة السياسية بشكل نظري لكل المواطنين بغض النظر عن عقائدهم وآرائهم وديانتهم؛ لكن الإخوان المسلمين ومن علي شاكلتهم يشاركون سياسياً علي أنهم أفراد في مجتمع خاضع لمبادئ الشريعة. ففي الغرب مثلاً، تراقب الأذرع القضائية والتشريعية للحكومة

ممارسات الدولة ومدى إلتزامها بالقواعد الديمقراطية: فكل هيئة من هذه الهيئات الثلاثة يضع الآخر في إختبار. لكن في العرف الإسلامي، يراقب الإخوان ممارسات الدولة للتأكد من مدى موافقتها لمبادئ الشريعة. بمعنى آخر، سيراقب الإسلاميون أنفسهم.

في الواقع، يضمن الإخوان المسلمون حرية الإعتقاد لأتباع الديانات السماوية الثلاثة فقط؛ فالقرآن لم يذكر شيء عن البوذية مثلاً بل تناول قضية الشرك (حيث كانت مكة مركزاً له في ذلك الوقت) والذي أنكره القرآن بالطبيعة حتى يعلو عليه. وبالإضافة إلى ذلك، فإن حرية التجمع التي تتمتع بها منظمات المجتمع المدني في الأنظمة الديمقراطية ستصبح في ظل النظام الإسلامي مقيدة بالإلتزام بضوابط الشريعة. فالإخوان المسلمون يعترضون علي فكرة إقامة دولة علي نسق المؤسسات الديمقراطية في الغرب: فالحكومة الإسلامية تعتمد علي النظام الشوري، وإحترام القائد، ومبايعة المرشد العام. لذا، فهم يدعون أن هذا هو الشرع ولا بد من التقيد به.

باختصار، هناك أحجية مفرغة تدعي بأن حريات التعبير وحقوق الإنسان مطبقة في النظام الديمقراطي الإسلامي، داحضة بذلك أي شك أو جدل أو إستكشاف أو أي شيء آخر يمكن أن يطور ثقافة، باستثناء بعض الإنتقادات الخفيفة التي يسمعها الحاكم من مقربيه من وقت لآخر. فهذه هي الحالة الحاكمة للمملكة العربية السعودية ونتائجها واضحة في الإسهامات الرائعة جداً للمملكة خلال السبع عقود الأخيرة في مجالات الموسيقى والفنون والآداب والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا.

لقد كشفت جماعة الإخوان المسلمين عن وجهها الحقيقي وقت إعلانها عن برنامجها السياسي المفصل في أكتوبر 2007. فطبقاً للبرنامج، تحرم المرأة والمسيحيون من منصب الرئاسة، ويعين مجلس من كبار العلماء لمراقبة أنشطة

الحكومة؛ في خطوة إعتبرها المراقبون بقايا فكرية لدولة إيران الإسلامية. فطبقاً لما تقول الوثيقة، فإن المرأة لا يمكن أن تصل لكرسي الحكم وذلك لتعارض مهام المنصب الدينية والعسكرية مع طبيعتها والأدوار الإنسانية والاجتماعية المنوطة بها. ومما يثير الدهشة أن البرنامج السياسي المقترح قد ناقش قضايا المرأة تحت فصل "قضايا وإشكاليات" إلى جانب "إشكاليات" أخرى مثل البطالة وعمالة الأطفال. ففي الوقت الذي أكدت فيها الجماعة علي "المساواة بين الرجال والنساء في الكرامة البشرية"، حذرت من "إثقال كاهل المرأة بمهام تتنافى مع طبيعتها ودورها في الأسرة."

علينا ألا ننسى أبداً أن الإخوان المسلمون يخططون لإعادة الخلافة. ومن المعلوم أن الإطاحة بالنظام المصري من الأهمية لتحقيق هذا الهدف. فكيف يتسنى للإدارة الأمريكية أن تتعاون مع هؤلاء المتطرفين؟ ولماذا يتحتم علي الشعب المصري أن يعاني من إفتراس الإخوان لإستئصال الموروث الثقافي له، من الأدب لمسابقات الجمال، عن طريق قنابله التكفيرية؟

فرونت بييج: هل يجدر بواشنطن دعم نظام مبارك؟ وهل يمكن أو يجب أن تستخدم المعونة الأمريكية لمصر والمقدرة بملياري دولار في دفع عجلة الإصلاح والديموقراطية؟ ما هي نصيحتك للسياسة الأمريكية تجاه مصر؟

برادلي: بالفعل، تبدو ورقة المعونة مرتبطة بدفع عجلة الإصلاح. فإن لم يرى إصلاح في الأفق أو كان إصلاحاً علي غير المراد، فإنه يتعين إذن تهديد النظام بتحويل هذه الأموال لمشروعات شعبية لدعم الديموقراطية. ولكن ما الذي يمكن أن نخسره واشنتون من إتخاذ هذه الإجراءات؟ إن نظام مبارك من المحتمل أن يسلم السلطة للإخوان المسلمين إذا أحس بخديعة أو حدث هيجان شعبي لا يستطيع السيطرة عليه. فمن من المصريين لن يشعر بسعادة من تلقي النظام لصفعة مجازية علي وجهه، فإن أحداً لم ينسى الصفعات الحقيقية العنيفة التي لحقته علي أيدي بلطجية النظام

كل يوم؟ وفي ذات الحين، فإن أي هجوم من مصر علي إسرائيل الأقوى منها عسكرياً لن يتعتبر سوى إنتحار من قبل مصر.

فعلي المستوى الإقليمي، تأكل نفوذ مصر. فمن فلسطين للعراق ومن لبنان لسوريا وربما إيران، ترى المملكة العربية السعودية تمسك بزمام المبادرة، ولم يعد في الشرق الأوسط حليف جدير بالثقة أكثر من آل سعود؛ ذلك الحليف المحصن ضد الضغوط الأمريكية علي إعتبار الزيادات اليومية لأسعار البترول.

ففي ظل هذه الضغوط، لن يكون للنظام المصري خيار غير القيام بإصلاحات جادة وإن كانت بطيئة. فالتقدم وإن كان بطيئاً إلا أنه أفضل من وضعية اللاحركة.

علي مدى قرنين، لعبت مصر دور الوسيط بين الشرق والغرب. فالمصريين العاديين يمكن أن يصبحوا حلفاء واشنتون الحقيقيين إذا أحسوا بمصلحة من جراء هذا التحالف. فترك الإدارة الأمريكية للشعب المصري مثخناً في جراحه، مع ما يحمل هذا السيناريو من إمكانيات وصول الإخوان للسلطة، بالحجة التي يدعيها بعض محللي السياسة في واشنتون أن الشعب المصري لا يستحق أكثر من هذا، هو ضرب من ضروب الخيانة لأكثر حضارات العالم العربي نبضاً وتعددية: فكما ذكرت آنفاً وأحب أن أوكد عليه أن هذا سيكون بمثابة ناقوس الموت للديموقراطية والتعددية في المنطقة.

باختصار، علي واشنتون أن تأخذ وقتها في التفكير وإعادة تقييم دعمها لفرعون مصر الذي يعمل علي الإسهام نحو حل القضية الفلسطينية لإبعاد الأنظار عن مثالبه البارزة. كذلك، لابد من دراسة جماعة الإخوان في حجمها الطبيعي: أهما حركة سياسية هامة لكنها لا تلقى غير تأييد محدود من جموع المصريين.

فرونت بيج: جون برادلي، شكراً لإضمامك لنا.

برادلي: أهلاً بك ومرحباً. شكراً جامي.